

الفصل الثاني

حياة محمد قبل النبوة

كان عبدالمطلب بن هاشم قد جاوز السبعين من عمره ، في عام الفيل ، وكان ابنه ، عبدالله ، في حوالى الرابعة والعشرين من عمره ، وأحب الشيخ المسن أن يفرح بزواج أصغر أبنائه ، عبدالله ، فيخطب له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وفي نفس الوقت ، الذي تزوج فيه ابنه من آمنة ، تزج هو - عبدالمطلب - من ابنة عمها ، هالة (١) فولدت له حمزة - عم النبي ، وقريبه في السن - وأقام عبدالله ثلاثة أيام مع زوجته ، عند أهلها ، كما هي العادة حينذاك ، ثم انتقل معها إلى منازل أسرته ، ولم يطل مقامه معها ، فقد خرج إلى الشام ، وتركها حاملا . وقد ذكرت روايات التاريخ عن عبدالله أنه كان وسيما ، جميل الطلعة تتحدث به فتيات قومه .

مرت أشهر الرحلة ، التي وصل فيها عبدالله إلى غزة ، ثم عاد . وفي طريق

(١) هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة . وقبل أن آمنة كانت في كفالة عمها ،

أهيب ، لوفدة أبيها ، وهب

عودته، اضطر للبقاء في يثرب، حيث أصابه المرض فبقي عند أخواله، من آل النجار، وتابعت القافلة مسيرها إلى مكة، وأخبر رفاقه عبدالمطلب بمرض ابنه. فأرشد أكبر أبنائه، الحارث، ليعوده، وبأني به، ولكن الحارث رصل إلى يثرب، بعد أن كان أخوه، قد وسد قبره، وهو، في شبابه الغض، لم يجاوز الخامسة وللعشرين من عمره.

فجمع الأب، عبدالمطلب، بموت ابنه، وفجعت للزوج والعروس بموت رجلها، وخسرت بذلك سعادتها، وكان عزاؤها للوحيد ما خلفه في أحشائها، فبقيت تعيش مع الأمل، تنتظر وليدها، والأثر للوحيد الباقي من عبدالله.

أما ثروة عبدالله فلم تكن بالثروة الكبيرة: فهو في مقتبل العمر، وبداية للعمل التجاري، وما زال أبوه حياً، فلم يرث شيئاً بعد، فخلف لزوجته - على بعض الروايات - خمسة من الأبل، وقطيعاً من الغنم، وجارية، اسمها أم أيمن، حاضنة النبي بعد مولده - وهي ثروة لا تجعل صاحبها من الأثرياء، ولا من الفقراء المعدمين.

وصل الخبر إلى الجد المفجوع أن آمنة وضعت غلاماً، فامتلاً قلبه بالبشر والسعادة، ورأى في الوليد الحفيد، صورة لابنه الفقيد، فأخذه إلى الكعبة، فرحاً به، وسماه محمداً. ثم أعاده إلى أمه، لتجد فيه للسلوى والعزاء.

واختلفت روايات المؤرخين في سنة ولادة محمد (ص)، فقيل: قبل عام الفيل، وقيل في نفس العام، وقيل بعده كما اختلف في الشهر.

وفي اليوم ، وفي الوقت ، أكان ليلاً ، أو نهراً ؟ وتقرر جمهرة من المؤرخين أن مولده كان في ١٢ ربيع الأول ، ويحدد بعضهم ميلاده في ٢٠ أغسطس (آب) سنة ٥٧٠ م ، أي عام الفيل . أما اسمه محمد ، فعلى الرغم من أنه لم يكن شائعاً بين العرب ، إلا أنه كان معروفاً بينهم ، حتى قيل إن رجلاً من قريش سألوا عبدالمطلب عن اختياره هذا الاسم ، فقال : أردت أن يكون محموداً ، في السماء ، الله ، وفي الأرض ، خلقه .

وكان من عادة بعض الأسر الشريفة المقتدرة إرسال أطفالها مع المراضع إلى البادية ، يقضي الطفل سني طفولته فيها ، حيث الهواء النقي ، والصحة ، والقوة ، واللغة السليمة . وكان لبعض القبائل شهرة بمرضعاتها ، ومنها قبيلة بني سعد . وفي انتظار مجيء المراضع ، أخذته ثوية ، جارية عمه أبي لهب ، فأرضعته ، كما أرضعت عمه ، حمزة ، فكانا أخوين في الرضاع . ولم ينس محمد لمرضعته ، ثوية عملها ، على الرغم من أنها لم ترضعه إلا أياماً ، فكان يصلها ما عاشت ، ويحفظ لها الود ، إلى أن ماتت ، في السنة السابعة للهجرة .

وجاءت المراضع إلى أمه في مكة ، وزهدن في اليتيم ، محمد ، كعادتهن ، طمعاً في الخير المنتظر من الآباء ، ولم يبق لحليمة بنت أبي ذؤيب غير محمد ، فأخذته ، لأنها خجلت أن ترجع مع صاحباتها ، دون رضيع ، وقال لها زوجها ، الحارث بن عبدالعزى « عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » . وتذكر حليمة وزوجها أنهما عرفا للبركة في الغنم والاهن ، منذ أخذنا هذا للرضيع لليتيم .

ولاشك أن حياة للبادية أفادت محمداً ، كما تفيد كل طفل برني فيها: ففي البادية نما جسمه ، وفيها تعلم اللغة العربية ، من ينابيعها ، حتى كان يقول ، بعد ذلك ، لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا قرشي . واسترضعت في بني سعد بن بكر » . قضى الطفل ، محمد ، سنتين في البادية ، حيث كانت ترضعه حليلة ، وتحتضنه ابنتها ، للشيء وعاد ، بعد ذلك ، مع حليلة ، إلى أمه ، ثم رجع ثانية إلى البادية ، حيث قضى عامين آخرين تعود خلالها على خشونة العيش ، وقسوة الصحراء ، مما لا بد منه لكل من يعيش أشهراً وسنوات في الخيام ، وسط البيئة البدوية ، عند بني سعد . وبقيت حليلة موضع حبه ورعايته ، بقية حياته ، وما جاءته مرة إلا وأكرمها ، وعادت من لدنه تحمل الحبر والمال ، وخاصة بعد زواجه من خديجة .

أعادت حليلة محمداً إلى أهله ، فعاش في حجر أمه ، وكفالة جده ، للشيخ الهرم ، فكان يغدق عليه من عطفه وحبه ما يعوض عليه ما فقدته من حنان الأب ورعايته ، وكثيراً ما أجلسه معه ، عند الكعبة ، على فراشه ، بينما كان أبناء عبدالمطلب يجلسون حوله .

وشعر محمد باليتم ، وعرف معناه ، لأول مرة ، عندما أخذته أمه في زيارة ، إلى يثرب ، فرأى هناك البيت ، الذي مات فيه أبوه ، والقبر الذي دفن فيه . ولا شك أنه سمع الكثير من أمه عن أبيه ، ورأى عبرات الحزن تنحدر من عينيها . وبعد شهر ، عازمت آمنة على العودة إلى مكة ، وفي طريق العودة ، مرضت ، وتوفيت ، ودفنت في قرية

الأبواء (١)، وعادت أم أيمن، بيتيم (٢) الأبوين، إلى مكة، بعد أن رأى، وهو في تلك السن المبكرة، ووحشة للسفر والغربة، مرض أمه، ووفاتها، فكان الألم يحز في قلبه، ويعصر نفسه، وإن كان الجدل الكبير قد حاول تخفيف آلام حفيده، بزيادة إكرامه، وللعطف عليه. ولكن هذا العطف لم يطل أمده، فقد مات عبدالمطلب، في حوالي للثمانين من عمره، وكان محمد ما يزال في الثامنة.

خسرت قريش بوفاة عبدالمطلب ركناً من أركانها، وشخصية من أعظم شخصياتها، وضعفت مكانة بني هاشم بموته، وأخذ بنو أمية يستعدون لينالوا للزعامة، وقد طمعوا فيها من قبل. وخسر محمد، بوفاة جده، القلب الكبير، والعناية، والحنان، فشيع للنعش الحبيب، ولم ينقطع بكائه، وكأنه كان يبكي حينذاك أباه وأمه وجده، في وقت واحد.

كان عبدالمطلب قد اختار من أبنائه أبا طالب، دون غيره، لكفالة حفيده، محمد، خاصة وأن أبا طالب هو أخ شقيق لعبدالله، وللد محمد، ويتصف بالنبل وكرم الأخلاق. وكان أبو طالب عند حسن ظن أبيه: فقد ضم محمداً إلى بنيهِ، بل أثره عليهم، في كثير من

(١) الأبواء: قرية على بعد حوالي ٤٠ كم جنوبي يثرب.

(٢) ونسبى بركة.

الأحيان ، مقدرا ظروف البتم ، وشعور الفتى الصغير ، وقد تولت عليه الكوارث والأحزان .

كان محمد في الثانية عشرة من عمره ، (وقبل في التاسعة) ، عندما عزم عمه ، أبو طالب ، على السير ، بقافلة تجارية ، إلى بلاد الشام وتعلق قلب محمد بهذه الرحلة ، وبالعم للكريم ، فرق قلب أبي طالب لابن أخيه البتم ، وأخذه معه في رحلته . وتذكر الروايات أنه عندما وصلت القافلة إلى بصرى ، وحلت فيها ، حيث كان يقام فيها سوق تجاري كبير ، تقصده قوافل العرب وتجارها ، اجتمع للراهب «بحرى» بالفتى الصغير ، محمد ، ويذكر ابن هشام ، في السيرة ، تفاصيل هذا اللقاء ، فيقرر أن بحرى قال لمحمد : « يا غلام ، أسألك ، بحق اللات والعزى ، إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه » . وأجابه محمد بقوله « لاتسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضها .. » . وتذكر الرواية أن للراهب بحرى : تفرس محمداً ، وعرف فيه أمارات النبوة ، مما كان قد عرفه من للكتب السماوية ، وأنه قال لأبي طالب : « ما هذا الغلام منك ؟ » فأجابه : « ابن أخي ، مات أبوه ، وأمه حبلى به » . فقال بحرى : « ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ، لبيغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . »

وكانت هذه أول رحلة لمحمد ، بتوسع خلالها أفق معارفه ،

ويطلع على مواطن بعض القبائل للعربية ، في وادي القرى ، وجنوب بلاد الشام . وربما سمع بعض الأخبار عن سيطرة الروم على عرب الشام . ثم عاد مع عمه إلى مكة ، واكتفى أبو طالب برحله من تلك للقافلة ، وعاد ليعيش مع عياله ، حياة فيها شيء من التقدير ، لكثرة أفراد أسرته ، وقلة ما يملك :

وقعت وقائع حروب للفجار ، ومنها ما كان بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس عيلان (من هوازن) ، بسبب مقتل عروة للرحال الهوزاني ، على يد البراص بن قيس الكناني ، وقيادة هذا الأخير لقافلة ملك الحيرة ، مما أوقع القتال عدة سنوات بين القبيلتين للعربيتين ، وانتهى بصالح بين الطرفين . وقد اختلفت الروايات للتاريخية في تحديد سن محمد خلال هذه الحرب ، ف قيل إنه كان في الخامسة عشرة ، وقيل في العشرين . كما اختلف في الدور ، الذي قام به خلال معاركها ، فمنهم من قال إنه كان يجمع للسهم ، ويعطيها أعمامه ، ومنهم من ذكر أنه رمى للسهم بنفسه . وربما كان الاختلاف بسبب استمرار الحروب عدة سنين ، مما تصح معه مختلف الروايات .

وقد ذكر الرسول الكريم (ص) هذه الحادثة فقال : « قد حضرته مع عمومي ، ورميت فيها بأسهم ، وما أحب أني لم أكن فعلت . » ولا شك أن مثل هذه الحوادث كانت كدروس في الحياة ، يتدرب خلالها محمد على القتال ، والصبر على المشاق ، والتغلب على العقبات ، إعدادا لما كان ينتظره ، في المستقبل القريب ، من مهام جسام .

ضجت مكة بالمظالم ، خاصة بعد وفاة عبد المطلب ، الذي كان
موحداً كلمتها ، جامعاً بطونها : وقد فقدت بعده لزعامة ، وضاعت هيبة
الحكم ، وتفرقت كلمة القوم ، وازداد طمع المرابين ، وكثرت أنات
المستغيثين ، وصيحات المظلومين ، فدعا الزبير بن عبد المطلب الى اجتماع
حضره شيوخ بعض الأمر من هاشم وبني تيم ، وذلك في دار عبد الله
ابن جدعان التيمي ، وتعاهد الحضور على نصره المظلوم ، حتى يؤدي
إليه حقه . وسمي هذا الاجتماع «حلف الفضول» ، وقد حضره محمد ، مع
أعمامه ، وذكره بعد بعثته ، فقال : « ما أحب أن لي بحلف حضرته في
في دار ابن جدعان حمر للنعم ، ولودعيت به لأجبت . »

رعى محمد للنعم في صباه ، حيث وجد في ذلك عملاً شريفاً ،
يكسب منه عيشه ، ويخفف من أعباء عمه ، أبي طالب ، كثير للعيال ،
قليل المال . فكان يرعى أغنام أهله ، وأهل مكة ، في اللوديان ، وللسفوح
للقرية من مكة . وكان ، بعد بعثته ، يذكر رعايته للنعم مغتبطاً فيقول :
« بعث موسى ، وهو راعي غنم ، وبعث داود ، وهو راعي غنم ، وبعث
وأنا أرمي غنم أهلي ، بأجساد . » وقد أفاد من هذا العمل : إذ قوى جسمه ،
وبصره ، وبعده بعض الوقت . عن مجتمع قومه ، فسنحت له الفرص للتفكير
في أحوالهم ، وعقائدهم ، وآلهتهم ، وأخلاقهم . ولا شك ، أنه في فترة
رعيه للغنم ، كان يفكر في كل شيء : في الكون والأفلاك ، في الأرض
والسماء ، في الشمس والقمر ، في الأوثان والأصنام . ومما يدل على

تفكيره هذا، أنه لم يؤمن بها . ومن الطبيعي أنه خرج على
مألوف قومه : فكفر بأصنامهم ، ولم يسجد لألهمهم ، ولا
أكل من لحوم القرابين ، ونفرت نفسه من أوهام الوثنية وضلالاتها .
وساعدته فترة رعى الغنم على الاعتصام بالفضيلة ، فزاد ذلك في تهذيب
طباعه ، وسلامة فطرته ، وطهارة نفسه ، وسمو غريزته . ومن الطبيعي
أن تعلمه رعاية الغنم الحذر والليقظة ، وتعهده لحمل الأمانة الكبرى .

عاش محمد في بيت أبي طالب ، يشارك أهله وقومه بعض أعمالهم ،
وينأى بنفسه عن كثير من عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم ، وكان يذهب ،
في الأشهر الحرم ، إلى أسواق العرب : في عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ،
يستمع الشعر والمعلقات ، والخطب والأحاديث ، وكان يعجب بما
يقوله الأحناف ، أمثال قيس بن ساعدة . ثم يبتعد عما يرى شباب قومه
قد انغمسوا فيه من هوى وشراب ومجون ، وكانت نفسه تعاف
هذا النوع من الحياة ، وكأنه قرأ سطور الغيب . وعرف المهمة ، التي
أعدته الأقدار لها : فما دنس حياته ، قبل البعثة ، بشيء مما يدنس
الشباب حياتهم به . وصدق الرسول الكريم حين وصف
نفسه فقال : « أدبني ربي ، فأحسن تأديبي » ، وصدق فيه قول الله ، عز
وجل : « وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » . فلا عجب إذا رأينا قريشاً تلقبه ،
قبل بعثته ، بالأمين . وحين دخل حرم الكعبة ، في حادثة حسم مشكلة

الحجر الأسود ، في أثناء بناء الكعبة ، نادى بعض للوقوف :
« جاء الأمين » . هل كانت فرحتهم به ، وقبولهم ، برضى
وسرور ، لحكمه ، دليل مكانته بين قومه ، تلك المكانة التي حازها
بسمو خلقه ، وحسن معشره ، ولين جانبه . وصدق فيه قول الله
عز وجل : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنهم -
صفات وأخلاق اتصف بها محمد ، منذ طفولته وفتوته وشبابه ، حتى
رجولته ، تلك الصفات التي تؤهل صاحبها للزعامة للقوية ، وتفانى الناس في
حبه وتقديره ، فقد كان لصفاته وأخلاقه الاجتماعية أثر كبير في أصحابه
وغير أصحابه ، حتى قال أحد المشركين من خصومه فيه للكلمة التالية :
« ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد له . »

لقد كانت خديجة بنت خويلد من أوفر أهل مكة مالا ، وكانت قد
تزوجت مرتين من بني مخزوم . ثم ازدادت ثروتها بالتجارة ، وكانت
تستأجر رجالا من قريش يتاجرون بملها ، مقابل أجر يتقاضونه منها ، وقد
رفضت رجالا من كبار قريش ، تقدموا لخطبتها ، اعتقادا منها أنهم يريدونها
لملها . ولما بلغ محمد الخامسة والعشرين من عمره ، رغب عمه ، أبو طالب ،
أن يجد له عملا يدر عليه ربحا ، أكثر من رعاية الغنم ، وعرض على محمد
أن يكلم له خديجة بنت خويلد ، لتستأجره في تجارتها ، فقبل محمد ما عرض له
عمه عليه ، وخرج أبو طالب ، فكلم خديجة كلاما ، يعرب عن

رأى للناس في محمد ، وثقتهم به . قال أبو طالب : « هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً ، فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببيكرتين (ناقتين صغيرتين) ، وأحسن نرضى لمحمد دون أربع بكرات » فقبلت خديجة ، ويقال إنها قالت « لو سألت ذلك لبعيد بغض ، فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب » . وأسرع أبو طالب يقول لابن أخيه : « هذا رزق مساقه الله إليك » .

خرج محمد بقافلته للتجارية ، بأموال خديجة ، ورافقه غلامها ، ميسرة ، وسار متجهاً نحو بلاد الشام ، حتى وصل بصري ، فباع ما كان يحمل ، وربح ، واشترى ، من مصنوعات الشام ما أوصته صاحبة المال بشرائه . واقتربت للقافلة من مكة ، تحمل من الأرباح ما لم تحمله من قبل ، واستقبلت خديجة محمداً ، فقصص عليها خبر رحلته ، وما صادفه من توفيق في البيع والربح . كما أخبرها غلامها ، ميسرة ، بأمانة محمد ، ومهارته ، مما ضاعف أرباحها . كما حدثها عن أخلاقه ، ورقة شمائله ، وطيب نفسه . ويظهر أنها أخذت تميل إليه بقلبها وعواطفها ، وترغبه زوجها ، نفخر به بين سيدات مكة ، وهي التي رفضت طلب الكثيرين من أكابر قريش ، حين أتوها خاطبين . وانتهت علاقة محمد للتجارية بخديجة ، وذهب إلى داره ، بعد أن أخذ أجره . وبدأت علاقة جديدة ، لم يشعر بها محمد ، فقد كانت بدايتها عند خديجة ، وفي قلبها ، وفكرها . لقد ملأ محمد برجلته وجماله ، وبأخلاقه وصفاته ، وبكلامه وعذب حديثه ، قلب

وتذكر الأخبار أن خديجة أسرت بها في نفسها إلى صديققتها ،
نفيسة بنت منية ، فأسرعت هذه إلى محمد ، فحدثته في الأمر ، فقالت :
« ما بعنيك أن تزوج ؟ » فقال : « ما يبدي ما تزوج به . » قالت : « فأن كفيت
ذلك ، ودعيت إلى المال والجمال ، والشرف والكفاءة ، ألا تحب ؟ » قال :
« فمن هي ؟ » قالت : « خديجة » . قال : « وكيف لي بذلك ؟ » . وكانت نفسه قد
أنست إلى خديجة ، وربما كانت نفسه قد حدثته بها ، لكنه يعلم أنها
السيدة الغنية ، التي ردت أكابر القوم ، ورفضت الاقتران بهم .
ولكن نفيسة طمأنته ، وزفت بشرى قبوله إلى خديجة . وتقدم
أبو طالب ، فخطبها ، على أصح الأقوال ، من عمها ، عمر بن أسد . حيث
كان أبوها ، خويلد قد توفي ، وتم القبول ، وخطب أبو طالب ، فقال :
« الحمد لله ، الذي جعل لنا بلدا حراما ، وبيننا محجوبا ، وجعلنا
الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ، ابن أخي من لا يوازن به
فئ من قريش إلا رجح عليه ، برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، وإن كان
في المال قل ، فإنها المال ظل زائل . » وإن له في خديجة بنت خويلد
رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى وكان للصداق
عشرين بكرة .

ثم زواج محمد ، وهو في الخامسة وللعشرين من عمره ، من
خديجة ، وهي (على أغلب الأقوال) في الأربعين ، وكان زواجا موفقا
سعد به الزوجان ، وانتقل محمد إلى دارها ، وأنجب جميع ذريته منها .
عدا إبراهيم ، الذي ولد فجاء بعد ، من مارية القبطية . ونوفي الذكور

منها، وهم : للقاسم ، وعبد الله الطاهر . أما بناته ، فهن : زينب ، ورقية ،
وأم كلثوم ، وفاطمة . ولم يطل للعمر إلا بصغراهن فاطمة .

ولا شك أن الألم قد حز في نفس كل من محمد وخديجة ، عندما
افتقدا ابنيهما للقاسم ، ثم عبد الله ، وإن توفيا صغيرين ، ولم يبق لهما
الأبوين إلا للبنات . وقد زوج محمد كبراهن ، زينب ، إلى ابن خالتها
أبي للعاص بن الربيع بن عبد شمس . وإن انتهى هذا اللزواج بالفراق ، بعد
الإسلام . أما رقية ، وأم كلثوم ، فزوجهما من عتيبة وعتبة ، ابني عمه
أبي لهب ، وقد طلقنا بعد الإسلام ، فزوجهما ، واحدة بعد الأخرى ،
عثمان بن عفان ، وأما فاطمة ، فزوجت ، بعد الإسلام ، من علي بن أبي طالب .
وربما كان حزن محمد على ولديه ، ورغبته في ولد ذكر ، بحمل
اسمه ، ويعيش معه ، هو الذي جعله يطلب من خديجة أن تشري زيد
بن حارثة ، للذي اعتقه ، وتبناه ، فسمى زيد بن محمد (١) وبقي معه حتى
كانت بعثة محمد ، فكان زيد من خيرة الصحابة المسلمين ، وعاد إلى
اسمه ، زيد بن حارثة ، بعد نزول الآية : « ادعوهم لأبائهم هو أوسط عند
الله ، فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم في الدين ومواليكم » . كذلك وجد

(١) ذكرت روايات التاريخ أن والد زيد ، وكان يقيم في أطراف الشام ، ظل يبحث
عنه ، حتى عثر عليه في مكة ، عند محمد ، وخيره محمد بين البقاء والذهاب ،
فاختار البقاء مع محمد ، وقال له « ما أنا بالذي اختار عليك أحداً ، أنت مني
مكان الأب والأم ، فأخذه محمد إلى الكعبة ، وأشهد الناس أنه تبناه . و تزوج
زيد من بركة ، فولدت له أسامة .

محمد سلوى عن فقد ابنه ، للقاسم ، بإحضاره ابن عمه ، علي ابن أبي طالب ، بربيه في بيته ، حيث أشفق على عمه كثرة عياله ، وقلة ماله . وذهب إلى عمه ، العباس ، وكان من أغنياء قريش ، فقال له : « يا عباس إن أخاك ، أبا طالب ، كثير للعيال ، وقد أصاب للناس ما نرى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا ، فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بني رجلا ، وتأخذ من بني رجلا ، فنكفيهما عنه . » وقبل العباس وذهبا إلى أبي طالب ، فأخذ محمد علياً ، وأخذ للعباس جعفرأ ، وبقي عقيب عند أبيه . وكان علي يومئذ في الخامسة من عمره ، وبقي في دار محمد ، حتى جاء الإسلام .

عرفت عن محمد (ص) ، قبل للبعثة ، عادة للتحنف ، أو للتحنث ، وهي اعتزال للناس ، والانقطاع للتفكير والعبادة . وربما كان يجد ، في تلك الساعات ، الراحة للنفسية بابتعاده عما كان يعبد قومه من الأصنام والأوثان وللنصب ، مما لم ترض نفسه ، في يوم من أيامه ، بعبادتها أو للناس الخير منها . فكان يفكر فيما هو خير منها ، وكان يميل إلى دين الحنيفية ، من بقايا ديانة ابراهيم . وميلا منه إلى هذا النوع من التفكير الديني ، ورغبة في حياة للعزلة ، وللبعد عن قومه ، لجأ إلى الاعتكاف في غار حراء ، ويقع في أعلى جبل إلى الشمال من مكة ، ويتبع هذا الغار للمقيم فيه الخلوة والتفكير في الكون ، وما وراء الكون ، فكان محمد يقضى شهر رمضان ، من كل عام ، في هذا الغار ، مكتفياً بالقابل من

للزاد ، يحمل إليه ، ويطيل هناك ساعات للتفكير العميق ، ويمارس حياة روحية طاهرة ، يهدف من ورائها إلى معرفة الحقيقة ، وسر الـكون ، وخالق الدنيا . وقد سما بتفكيره فوق تلك الحجارة المنصوبة حول الكعبة ، وارتفع عن مستوى تلك الآلهة التي ما آمن يوماً بها . وما استهدف محمد ، في تلك الفترة من حياته ، أن يصل إلى ما يريد عن طريق أقوال الكهان وصحائف رهبان النصراني وأخبار لليهود ، ولم يعرف تاريخ أبامه تلك أي تردد منه على أمثال هؤلاء ، وإنما كان يتوخى كشف الحقيقة ، والتوصل إلى الإيمان ، بالتفكير الدقيق في هذا الـكون وآيات الخالق فيه . لقد كان محمد في غار حراء ينسى كل شيء : ينسى الجوع والظما ، ينسى الأهل والولد ، لكنه لم ينس للبحث والتفكير والتأمل ، وكان يسمو بفكره عن العالم المادي ، فينسى كل ما حوله ، يغيب في تفكيره وتأملاته ساعات ، تليها ساعات ، يبحث عن سر الـكون ، يبحث عن الحق ، يبحث عن الله (جل جلاله) .

